

الطبعة
المصطفى

د و ب ت ن س د ر ك ل ث ل ا ث ا ش م

عدد خاص بالأدب
محمد العروسي المطوري

* أفريل / جوان 2006 *

136

الناشر المعنوي للتراث العربي

- تونس -

من عزف الحياة إلى نشيد الموت (*)

سُوف عبيد

لئن لم يكن قرض الشّعر هو الهاجس الأكبر في مُدوّنة الأديب محمد العروسي المطوي غير أنه دأب على قوله ونشره من حين إلى حين وأصدر منه ثلاث مجموعات شعرية⁽¹⁾ بالإضافة إلى دراسة أدبية حول الشاعر امرئ القيس ناهيك عن اهتماماته العديدة الأخرى بعشرات الشّعراء في غضون تحقيقاته للكتب المتنوعة مما يجعل الشعر لديه حالة دائمة رغم ضمورها وكمونها إذا ما قورنت باهتماماته الكثيرة الأخرى.

على أنّ الشاعرية لا تُقاس بالكم في الكتابة والنشر أو بالمدى في الممارسة والزّمن وإنما تُمَاحك وتُدرك بالكيف في الجودة وبالعمق في النّظرية لذلك فإنّ القراءة المتأنيّة وحدها هي التي تضع شعر المطوي في المنزلة التي هو جدير بها من دون مبالغة أو استنقاص.

ورغم أنّ المطوي يُعتبر من الأدباء التونسيين وحتى العرب الأوائل الذين كتبوا الشعر الحرّ الذي يعتمد على أساس التفعيلة وذلك قُبيل منتصف القرن العشرين، ورغم أنه كتب عديد القصائد ضمن الغرض الوطني الملزّم بالقضايا التحرّرية والاجتماعية فإنّ قيمة شعره تتجلى لنا في تلك القصائد ذات المنهى الوجданى الذاتي بما فيها من توهج ومكافحة وخصوصية أيضاً!

في قصيدة (يكفيك)⁽²⁾ تعبير عن محنّة الحبّ التي تنزل بالرّجل وهو في آخر حياته وهي قصيدة لعمرى جريئة الموضوع طريفة التناول حيث تبدأ :

مِنْ كُلِّ مَنْ يَدْرِي فِي أَخِيرِ الْعَمْرِ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ أَوْ وَهْجَةُ الْجَمْرِ؟!	حَبِّيْكَ مَرْفُوض أَنَّ الْهَوَى صَفْب مَا يُرْتَجِي مِنْهُ هَلْ قُوَّةُ النَّبْض
---	---

(*) قدمت هذه الكلمة بالنادي الثقافي أبو القاسم الشابي بالوردية يوم 21 جانفي 2006 بمناسبة الاحتفال بمرور 86 سنة على ميلاد الأديب محمد العروسي المطوي.

(1) فرحة شعب - تونس - الشركة التونسية للتوزيع، 1963 .

- من الدهليز، تونس، المؤلف 1988 .

- حبيك، تونس، بين الشعر 2002 .

(2) حبيك ص 8 .

ثم تُفتح على التصوير الغزلي ذي الملامح والمعايير الجمالية العربية القديمة لكنَّ الجديد في هذه القصيدة هو هذا البوح الحزين بالإحساس بفوات الأوان فإذا كان الحب هو أرقى مراتب السعادة بما فيه من حُسن وجمال واستمتاع فإنه عند هذه المرحلة من العمر يكون بلاه ومكابدة صعبة :

حُبِّيْكِ وَيَلَاهُ بَلْوَى بِلَا أَجْرٍ هَلْ أَشْتَكِي جَهْرًا مَالَذَّهُ الْحُبُّ مِنْ بَحْرِ حِرْمَانٍ يَكْفِيكِ... يَكْفِيكِ	أَمْ حَسِّيْيِ سِرِّي إِنْ كَانَ فِي الْغَمْرِ أَوْ مَهْمَمَهِ الْقَفْرِ لَا تَكْشِفِي أَمْرِي !
---	---

فالشاعرية في هذه القصيدة تبدو - بالإضافة إلى مخالفة السائد متراوحة بين ثنائية الرهبة والرغبة وقد شدّتا وجдан الشاعر ومهجته إلى قطبين متناقضين، فالقطب الأول يجذبه إلى الحب بما فيه من عالم سحري لذيد تمثله هذه الحسنة الكاملة الفتنة :

أَوْ رِقَّةُ الْخَضْرِ فِي غَرَّةِ الشَّهْرِ مَجْدُولَةُ الشَّغْرِ يَا هَوْلَ مَا يَسِّرِي مِنْ عَطْفَةِ النَّحْرِ أَوْ فَأْرَةُ الْعَطْرِ أَوْ حَلْمَةُ التَّمْرِ !	تَرِيَاقُهَا رَوْحٌ فِي شَكْلِ أَهْلُولٍ مِنْ قَدْ هَيْفَاءٌ تَعْطِيكَ تَعْنَانًا مِنْ حُرْقَةِ الْوَجْدِ مِنْ وَرْدَةِ الْغَدِّ مِنْ فِتْنَةِ الْجِيدِ
--	---

أما القطب الثاني فيُمثل مجموع القيم السائدة تلك التي تدعو إلى رفض نزق النفس وكبح جماح الشهوة بالإضافة إلى عامل الفارق في العمر الذي يزيد من هول المجازفة فالقصيدة إذن تعبير صادق عن تلك الأحاسيس المغمورة والمكبوتة التي قد تراود الإنسان وقد تجلّت من دون عقدة السن أو حواجز العادات تلك التي قد لا تكون سليمة أو صحيحة في بعض الأحيان.

إنما الفنُ الخالص والأصيل هو صنو الحياة في توقعها للجمال وللكمال من ناحية وفي تحديها للفنان والزوال من ناحية أخرى فقصيدة المطوي هذه تعبير عن إرادة الحياة والتمسك بحق التمتع بزینتها إلى آخر لحظة في العمر ! هذا ما يفسّر إلى حدّ ما تصدير مجموعته الشعرية (حبّيْك) بحديث الرسول ﷺ : « حُبُّ إِلَيْيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالْطَّيْبُ وَجْعَلَتْ قُرَّةً عَيْنِي فِي الصَّلَاة ».

وإذا كانت هذه القصيدة تندرج ضمن غرض الحنين إلى عهد الشباب وذم الشّيب الذي كتب فيه عديد الشعراء منذ العصر الجاهلي إلى اليوم إلا أنها تختصر

بها الوجدان الملهم إلى النهل من مباح الحياة بدون حدود العمر الداخلية وحواجز المجتمع الخارجية تلك التي تلوح من خلال تلميح كلمة تقديم الناشر : كأنّ نشر مثل هذه القصيدة لا يليق بمقام أديب عُرف بالجدّ والرصانة سواء في كتاباته أو في مختلف أطوار حياته خاصة وهو قد نيف على الثمانين ولم يقلْ كما قال الشاعر لَيْد بن ربيعة :

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها

وَسُؤَالُ هَذَا النَّاسِ كَيْفَ لَيْدُ؟⁽³⁾

ولم يُحاول تحويل وجهة قلبه إلى عاطفة الأبوة في مثل موقف الأديب

خليفة محمد التليسي الذي قال :

مِنْ بَعْدِ مَا عَصَفَ الثَّلِيجُ بِتَالِي
جَاءَتْ تُنَاوِشْنِي وَتُوقِدُ خَامِدِي
لَوْ قَرَبَتِنِي السِّنُّ كَنْتُ صَدِيقَهَا
وَرَفِيقَهَا وَطَرَحْتَ زُهْدَ الزَّاهِدِ
لَكْنْ أَتَتْ وَالْعُمْرُ فِي إِدْبَارِهِ
فَمَنَحْتُهَا مِنِّي حَنَانَ الْوَالِدِ!⁽⁴⁾

وإنما كان لسان حاله كما عبر الشاعر الشعبي التونسي وقد رواه لي ذات

يوم - رحمه الله :

الشَّيْبُ وَالْمُعْصِيَةِ عِيْبُ
وَالزَّيْنُ حِيَرُ دِلِيلِي
نَّا مَحْنَتِي مُسْكِنِي الْجِيْبُ
جَاجِيلَهَا بَعْدَ جِيلِي !

ولقد كان محمد العروسي المطوي من هواة الأدب الشعبي ومن جامعي شعره وأمثاله وأخباره وله فيه تقييدات لست أدرى ما مدى عنایته بنشره في هذا المجال .

قصيدة يكفيك إذن على قدر كبير من الإبداع إذا ما قورنت بمثيلاتها في نفس الغرض والموضوع ولا أدعّي أنّ محمد العروسي المطوي قد فاز بقبض سبق الشاعرية من بين سابقيه ومعاصريه وإنما أعتبره في هذه القصيدة قد اكتسب إلى حدّ بعيد صفة الشاعر عن جدارة بل ويمكن أن نلاحظ نظرته التفاؤلية والإيجابية وطراوة موقفه ليس في الدّعوة إلى الأخذ بالجانب النير من الحياة مهما تقدمت بالمرء مراحل العمر وإنما حتى في طرقه لموضوع الموت أيضا ؟!

4) ديوان التليسي - الدار العربية للكتاب - 1989 - ص 256 .

فقصيده (قبل الفوت) (5) التي يقف فيها موقف الرّفض من الذين يعيشون حياة الفراغ والوهم إنما هي دعوة لأخذ الحياة بأخذ الجد والدّأب والعزم والفلاح حيث يقول في أولها :

أنوراً ترى
أضوءاً رأيت بتلك الشّموسِ
أماءاً وجدت بتلك الكؤوسِ
فحدق إليها
مراراً... مرايا
ولا تبتئس
إذا ما رأيت الفراغ يسود
وعباد وهم وصرعى جمود
وهم يعمهون
ولا يفقهون
واسارع إليهم بحفر القبور
ويوم الدثور
لأنّهم في عداد الموات
واكرام ميتٍ بأن يُقبر
ببطن الثرى...

إن مثل هذا الورى الذين هم خالون من شوق الحياة ومجدها لا يستحقون إلا الرّدم في القبور حيث يقول :

وجمد دموعك
لا تحزن نَنْ
فخير لباس الموات الكفن
وهات المكابل
وجر التراب
وقدم... سرعاً إلى الهاوية
حالة جمع
أليفة صفع
حيتها الحياة بكل رجس
وكُل دنس

(5) الشعر التونسي المعاصر - محمد صالح الجابري - الدار العربية للكتاب - تونس 1989 - ج II - ص 156 .

الشّاعر محمد العروسي المطوي ثائر لا يهدأ وجارف لا يتراجع كما يبدو في هذه القصيدة هو ثائر على من يُمثل الوهن والإحباط فتراه متخاذلاً مستسلماً منقاداً للظروف وهو جارف لكلّ مظاهر العجز والجمود والإحباط فالقصيدة إذن تُعبر عن روح الجيل الجديد الذي ظهر في فترة ما بين الحربين العالميتين في القرن العشرين ذلك الذي آمن بحركة التحرر والتقدم في جميع المجالات، إنه جيل أحب الحياة بما فيها من جمال و فعل وتحديات مثلما عبرت هذه القصيدة في حركتها الأخيرة :

فَخُذْ مِنْ جَحِيمِ الْعَذَابِ إِلَيْهَا وَصُبْ عَلَيْهَا
تَكُنْ قَدْ بَلَغَتِ الْمُنَى وَالْطَّلبُ
وَأَنْقَذْتَ جَسْمًا حَلِيفَ الْعَطَبُ
وَكُنْتَ جَدِيرًا بِمَجْدِ الْحَيَاةِ
وَنُورًا يُشَعِّبُ بِقُدْسِ الْهُدَاءِ
أَتَوْا لِلْبَرَائَا
بِصَدْقِ النَّوَايَا
فَكَانُوا الْأَمَلُ
وَكُنْتَ الْعَمَلُ !

هو ذا عالم الشّاعر الذي يدعو إليه : عالم مُفعّم بالجمال والمسرة والبهجة برفقة الأنثى كما في قصيدة «حبّيك»، وهو عالم قائم على قيم العزم والتحدي والعمل برفقة الذين يؤمنون بأنّ الحياة سعيّ وعطاء وأمل أو لا تكون ! بهذا المعنى يكون الموت لدى الشّاعر عودة إلى أحضان الأرض بما فيها من دفء وحنان واستمرارٍ للكون الفسيح الرحّب.

كذلك هو محمد العروسي تغنى بالجمال وعزف على مختلف أوتاره ورقص حتى أضحى قاب قوسين أو أدنى من احتفالية الموت ! أو ليس الشعر الحقيقي هو الذي يشدّو الحياة ويجعل الموت نشيداً !

سُوف عبيد